إذن : لا تجأروا لأنكم لن تُنصروا منّا ، وكيف ننصركم بجؤاركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتى ؟

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تُلْقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صدْق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله فى الآيات حاملة الأحكام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشى إلى الأمام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدى إلى موضع قدميْه ، إذا به يمشى للخلف على عَقبه ، وكأنهم أخذوا أخْذاً غيّر عندهم دولاب السير ، لماذا ؟ لأنهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون فى متاهات الحياة على غير هدى ، كمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميْه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه فى قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يميناً أو شمالاً ؛ لأنه لا يرى .

فالمعنى : لا تَلُمْ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أنْ جاءتك وأصبحت بين يديك أغمضتَ عنها عينيك .

وفى موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال]

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

مادة : كبر تأتى بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كَبِر فلان . يعنى : كان صغيراً ثم كبر ، وبضم الباء للشىء المعنوى وللقيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : عظمت .

ومعنى الاستكبار افتعال الكبر وطلبه ، مثل : استفهم يعنى : طلب الفَهْم ، فى حين هو ليس كبيراً فى ذاته ، فهو محتاج إلى غيره . فالكبير فى ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له فى ذاته مُقوِّمات الحياة وضرورياتها وترفها ، لا يستمدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من غيره ، فلا يصح له أنْ يتكبَّر ، فمَنْ أراد أن يتكبَّر فليتكبَّر بشىء ذاتى فيه من صحة أو مال أو سلطان ... الخ ، وهذه كلها أمور موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغنى قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده ؛ لأنه الواهب للغير ، والمتفضِّل على الخَلْق بما يمكن أنْ يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله سبحانه (المتكبر) ؛ لأنه سبحانه رب الخَلْق أجمعين ، ومن مصلحة الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على خَلْقه ويتكبَّر عليهم .

وهكذا يحمى الحق سبحانه خَلْقه من خَلْقه ، فإنْ تكبَّر عليك ربك ، وأجرى عليك قدراً ؛ لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه يتكبَّر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون ، إنْ فعلوا بك هذا الشىء ، إذن : فصفة الكبرياء لله عز وجل فى صالحك .

ومثَّلْنَا لذلك ، ولله المثل الأعلى : من مصلحة الأسرة ألاَّ يكون لها إلا كبير واحد يُرجَع إليه ، ومن أقوال العامة (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لأنه الميزان الذى تستقيم به الأمور ويُسيِّر دفّة الحياة .

وقلنا : إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا ؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول : هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا قوىٌّ وذاك أقوَى ، ولا يقال هذا في صفته تعالى لأنك لو قُلْت : الله أكبر لكان المعنى أنك شركت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال : الله أكبر إلا في النداء للصلاة .

إذن : المستكبر : الذى يطلب مؤهلات كبْر وليس لذاتيته شىء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغى له أن يتكبر إلا إذا ملك ذاتيات كبره ، والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك .

ومعنى ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون] الهاء فى (به) ضمير مُبْهم ، يُعرَّف بمرجعه ، كما تقول : جاءنى رجل فأكرمته ، فالذى أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفى الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذى أُرسل إليهم ، والقرآن الذى أُنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن : لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير فى (به) يعود إلى بيت الله الحرام ، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وَضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسيرون فى رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد ، فى وقت انتشر فيه بين القبائل السَّلْب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذى يحجُّه العرب كل عام ، وخدمته وسدانته فى أيدى قريش ؛ لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون] السامر : الجماعة يسمُرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حول بيت الله ليلاً يتحدثون في حق النبي ﷺ ، يشتمونه ويخوضون في حقه ، وفي حق القرآن الذي نزل عليه[1] .

وليتهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهُجر ، والهُجْر هو فُحْش الكلام في محمد ﷺ وفي القرآن .

فأمر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم في رحاب بيت الله الذي جعل لهم السيادة والمنزلة ؟ كيف يخوضون في رسول الله الذي جاء ليطهر هذا البيت من الأصنام ورجسها ؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصدق فيه قول الشاعر :

أعلِّمهُ الرمايةَ كُلَّ يومٍ فلمَّا اشْتَدَّ ساعِدُه رَمَاني
وكَمْ علَّمتُه نَظْمَ القَوافِي فلَمَّا قَالَ قَافِيةً هَجَاني

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حُرْمته ، وجعلوه مكاناً للسَّمَر وللهُجْر وللسَّفَه وللطيْش ، ولكل مَا لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون .. وهكذا .

والحق - سبحانه وتعالى - يُنبِّهكم إلى أن ضروريات حياتكم هِبةٌ منه سبحانه وتفضُّل ، فحينما جاءكم أبرهة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردِّه ولا قدرةَ على حماية البيت ، فلو هدمه لضاعتْ هيبتكم

---

(١) قاله عبد الله بن عباس وغيره ، فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (٤٦٧١/٦) .

وسيادتكم بين القبائل ، ولتجرأوا عليكم كما تجرأوا على غيركم ، لكن حمى الله بيته ، ودافع عن حرماته ، حتى إن الفيل نفسه وعى هذا الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه فى أى ناحية أخرى فيسير .

ويُرْوَى أن أحدهم[١] قال للفيل يخاطبه : ابْرك محمود وارجع راشداً ـ يعنى : انفد بجلدك ؛ لأنك فى بلد الله الحرام ، وكما قال الشاعر[٢] :

حُبِسَ الفيلُ بالمغَمَّس حَتَّى … صَارَ يحبُو كَأنَّهُ مَعْقُورُ[٣]

وهكذا ردَّهم الله مقهورين مدحورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى لكم السيادة .

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل] يعنى : مثل التبن والفُتَات الذى تذروه الرياح .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان بمكة . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة) ١/١٢٥ ، قال محققه : الخبر فى سيرة ابن هشام (١/٥٩) يستطعمان « الناس » . ونقله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/١٧٤) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة .

(٣) المغمس : موضع قريب من مكة . والمعقور : المنحور ، أى كأنهم قطعوا إحدى قوائمه ثم نحروه ، وهو للإبل . [انظر : لسان العرب ـ مادة : عقر]

ثم يقول فى أول قريش : ﴿ لإيلاف قُريْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] يعنى ما حلَّ بأصحاب الفيل ، فاللام فى (لإيلاف) لام التعليل ، يعنى : حلَّ ما حلَّ بأصحاب الفيل لتألف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف ﴿ إيلافهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ ﴾[قريش] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمى لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغى عليكم أنْ تعبدوه وحده لا شريك له ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨ ﴾

فى هذه الآية والآيات بعدها يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُوبِّخهم بعدة أمور واحد بعد الآخر .

أولها : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. ۝٦٨ ﴾ [المؤمنون] فالاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذى جاءهم فى القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلَّقوه على الجدار ؟

لذلك لا يُعقل ألاَّ تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بُدَّ أنكم فهمتموه ووعيْتُم ما فيه ، بدليل قولكم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقه عما فى ضميره ،

فاعتراضكم ليس على القرآن إنما على محمد ؛ لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة - إذن - منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم يَدْرِ هؤلاء أن محمداً ﷺ ما جاء ليسلبهم سلطتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة فى سبيل راحتهم وسعادتهم ؟

لقد جاء النبى ﷺ ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريفاً ، بدليل أنه عاش فى مستوى أقلّ منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شراباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرَّم عليهم الزكاة التى أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] يبدو أنكم ألِفْتم العبودية للعظماء وللجبابرة ، ألِفتم العبودية لغير الله ، وعَزَّ عليكم أن يحرركم الله من هذه العبوديةَ على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ، ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقُلْ أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[1] .

إذن : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٦٨)﴾ [المؤمنون] توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً ﷺ أن ينزل عليه ، وأن ينال دونهم هذه

(١) هذا القول قاله الوليد بن المغيرة ، نقله ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً فى أمر محمد ﷺ ، رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرِّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

المكانة ، كما قال سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤)﴾ [النساء]

الأمر الثاني : ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [المؤمنون] يعنى : جاءهم أمر غريب لا عهدَ لهم به ، وهو أن يأتى رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بهما ، إذن : ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم فى الأولى منعهم فى هذه ، إنه الحسد لرسول الله ﷺ ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

الأمر الثالث : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩)﴾

يعنى : أنزلَ عليهم رسولٌ من السماء لا يعرفون سيرته وخُلقه ونسبه ومسلكه قبل أنْ يُبعث ؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سَمَّوْه « الصادق الأمين » وارتضَوْا حكومته بينهم فى مسألة الحجر الأسود ، وكانوا يأتمنونه على ودائعهم ونفائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أو خيانة أو سَقْطة من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة فى قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم : سلوكه وسيرته وخُلقه ، وإذا لم تُجرِّبوا عليه الكذب مع الخَلْق ، أتتصورون منه أنْ يكذب على الخالق ؟

وهل رسول الله فى أول بعثته لَمَّا أخبر الناس أنه رسول الله جاء

القرآن ليحمل الناس على الإيمان به ؟ لا ، إنما جاء ليتحدى مَنْ لم يؤمن ، أما مَنْ آمن بداية ، بمجرد أنْ قال محمد : أنا رسول الله قال : صدقت ، وحيثية التصديق ما جُرِّبَ عليه في الماضي ، وما عُلِم من صدقه ، وأنه لم يكذب أبداً ؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإنْ قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشكّ أحد منهم في صدْقه .

لذلك النبي ﷺ لما قال أبو بكر في مسألة الإسراء والمعراج : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، يحملها رسول الله تقديراً لأبي بكر ويقول : « كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسَيْ رهان » يعني : في الخُلُق الطيب والسلوك السَّويّ « فسبقتُه للنبوة فاتبعني ، ولو سبقني هو لاتبعتُه » .

ولما نزل جبريل - عليه السلام - على سيدنا رسول الله ﷺ في أول الوحي فأجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عمَّا حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذي كان ينزل على موسى وليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال ﷺ : « أوَمُخرجِيّ هم ؟ » قال : « ما جاء أحد بمثل

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٣٩٨/١) باختصار « أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر فأنكروا عليه ذلك وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر في إنكار فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك في المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

ما جئت به إلا عُودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً »[1] .

ومع ذلك يظل رسول الله ﷺ خائفاً قلقاً أن يكون هذا شيئاً من الشيطان ، فتُطمئنه السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله ، لذلك تقول له : « إنك لتصلُ الرحم ، وتُكسب المعدوم ، وتحمل الكَلّ[2] ، وتعين على نوائب[3] الدهر ، والله لن يَخذلك الله أبداً »[4] .

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة فى الإسلام ؛ لأنها اجتهدتْ واستنبطتْ من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلاً على صدْقه بعد البعثة ؛ لذلك كانت أول مَنْ سُمِّيت بأم المؤمنين ، حتى قال بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ ؛ لأنه فى هذه السِّن كان فى حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس صغيرة تُدلِّله ، وقد قامت خديجة ـ رضى الله عنها ـ فعلاً بدور الأم لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره فى أشدِّ الأوقات وأحرجها .

كما نلحظ فى الآية : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ .. ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون] فأضاف الرسول إليهم يعنى : رسول لهم ، أما فى الإضافة إلى الله تعالى : رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى باختلاف الإضافة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) الكل : هو مَنْ لا يستقل بأمره قال تعالى : ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] والكل هو العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ١٦٩/٢] باختصار .

(٣) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب ـ مادة : نوب] .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والمسألة الرابعة فى توبيخ الله لهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : جنون ، والجنون أنْ تتعطل الآلة العقلية التى تزن الحركات على وفق النفع والضر ، فتفعل الخير النافع ، وتترك الشر الضارّ . ولننظر : أىّ خصلة من خصال الجنون فى محمد ﷺ .

ودَعْكَ من قضية الدين والإله إنما خُذْ خُلقه ، والخلُق أمر يتفق عليه الجميع ويحمدونه ، حتى وإنْ كانوا ضد صفته ، فالكذاب يحب الصادق ، ويعترف أن الصدق شرف وكرامة ، والبخيل يحب الكريم ، والغضوب يحب الحليم ، ألاَ ترى الكاذب يزاول كذبه على الناس ، لكن لا يحب مَنْ يكذب عليه ؟

ألاَ ترى شاهد الزور ينقذ غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحتقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور ترتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، ومَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره .

إذن : فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشىء ، وما دام لا يُتّهم فى خُلقه فلا يُتهم كذلك فى عقله ؛ لأن العقل هو ميزان الخُلق وأساسه .

لذلك يقول ربه ـ عز وجل ـ فى حقِّه :

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ

لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم] فخلُقك العظيم أكبر دليل على أنك لستَ مجنوناً .

إذن : محمد بريء من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ .. (٧٠) ﴾ [المؤمنون] فهذا عيبه فى نظرهم ؛ لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق فى الخير الذى يأتيه ، فإنْ كان فى شىء لا ينتفع منه فهو شرٌّ ؛ لذلك إنْ أردتَ أنْ تحكم على خَصْلة فاحكم عليها وهي عليك ، لا وهى لك ، فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخُذْ المسائل على أنها لك وعليك .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما قيَّد حركتك فى النظر إلى محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقُلْ : منعنى متعة النظر .. الخ ، لكن انظر إلى أنه قيَّد عينيك وأنت واحد ، وقيَّد عيون الآخرين عن محارمك وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) ﴾ [المؤمنون] وطبيعى أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطغيانهم ، يكرهون الحق الذى جاء ليعدل الميزان ، ويُقوِّم المعوج فى حركة الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغى أن تكون معيار تصديق له لا تكذيب به ، ينبغى أن نقول : طالما أن أهل الباطل يكرهون هذا فلا بُدَّ أنه على الحق وإلاَّ ما كرهوه .

---

(١) غير ممنون ، أى : غير مقطوع أى دائم . ويحتمل انه غير مُكدَّر بالمنّ والتقريع والفخر به ، ولا يتعارض المعنيان . [القاموس القويم ٢/٢٤٠] .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

إذن : فالمسائل لا تسير على هَوَى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق ؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون ، وكلُّ صانع يغَارُ على صنْعته ، وهذا مُشاهد حتى فى صنعة البشر ، ولك أنْ تتصوّر ماذا يحدث لو أفسدتَ على صانعٍ ما صنعه .

وعدالة الأشياء أن تسير على وَفْق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع ؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار ، فالإنسان لو سار فى حركة حياته على وَفْق هواه لأخذ مَا ليس له ، ولَقبل الرشوة ، ومال إلى الفسْق والانحراف ؛ لأنه فى الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر إلى العاقبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوتة ، ونسى تبعة ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون] ولك أن تقول : نعم ، اتباع الأهواء يُفسد الأرض ، ويُفسد حركة الحياة فيها ، لكن كيف يُفسد السماء ؟ وهل لأحد قدرة عليها ؟

ونقول : ألم يكُنْ من أمنيات هؤلاء : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : من أهوائهم أنْ تتهدّم السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ، وأىّ فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعتَ أهواءهم لفسدَتْ السموات والأرض ، ليس هذا وفقط بل ﴿وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١)﴾ [المؤمنون] حيث سيتعدّى فسادهم ليشمل كل ما فى الوجود .

لذلك يقيد النبى ﷺ هذه الأهواء فى قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] لأنه ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم]

وقد توقف بعض المستشرقين مُعترضاً على هذه الآية : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ [النجم] يقولون : يعنى كلامه كله صحيح ، فلماذا يُعدِّل له ربه بعض الأحكام ؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدّل حين نطق به كان ينطق عن هوى .

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوَى أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله ﷺ لم يكُنْ يعرف فى هذه المسائل حُكْماً وانصرف عنه ، إنما نطق وحكم على مقتضى ما فهم فى أمر لم ينزل فيه من الله شىء ، ثم نزل الحكم من الله ليُعدِّل اجتهاد رسوله .

إذن : لم يكُنْ لرسول الله هَوَىً ينطق بمقتضاه ، وفى تعديل الحق سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على صدْقه ﷺ وأمانته فى البلاغ عن ربه ، وإلاَّ فلم يكُنْ أحد ليعلم هذا التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصّباً لنفسه ، أو لدفْع الخطأ عنه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعّفه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣) ﴾ [التوبة]

وكان بوسع رسول الله أن يكتم هذه الآيات التي تعاتبه وتَعُدُّ مأخذاً عليه ، لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، لذلك يقول عنه ربه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(١) (٤٦) ﴾ [الحاقة]

ثم يقول تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) ﴾ [المؤمنون] و (بل) تفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات كلام جديد بعدها ، والذِّكْر هنا يعني : الشرف والصِّيت والمكانة العالية ، كما جاء في قوله تعالى عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) ﴾ [الأنبياء] فكان يجب عليهم أن يحتضنوا هذا القرآن ، ويرفعوه فوق رؤوسهم ، ففيه مجدهم وشرفهم وعِزَّتهم ، والعرب بدون القرآن لا ذِكْرَ لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع الماء ومواضع الكلأ ، كانوا بَدْواً تنتشر فيما بينهم الحروب والغارات وقَطْع الطريق ، كان الواحد منهم يسرق ليُكرم ضيفه بما سرق .

وهذه من الأمور العجيبة في عادات العرب في الجاهلية ، فلم يكن

(١) الوتين : عِرْق في القلب إذا قطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسي الهام الذي يغذي الجسم بالدم النقي الخارج من القلب ، والمعنى : أي أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أي مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أنْ ترى حب الغارة والاعتداء مع الشهامة والكرم فى طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعِنُّ له ، وما يخطر بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تمدحَنَّ ابْنَ عبَّاد[1] وإنْ هطلَتْ كفَّاهُ بالجُود حتَّى أشبَه الدِّيَمَا[2]

فَإنَّهـا خطرَاتٌ مـن وَسَــاوِسِه يُعْطى ويمنَع لاَ بُخْلاً ولاَ كرَمَا

ومن أشهر قصائد الشعر العربى فى الكرم هذه القصيدة التى تأصَّل فيها هذا الخُلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يهِمُّ بذبح ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لقِرَاه[3] .

ويقول فيها الشاعر :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البطن مُرْمِلٍ ببيداءَ لم يَعْرِف بها ساكنٌ رَسْما[4]

أخِي جَفْوةٍ فيه من الأُنْسِ وَحْشَةٌ يرى البُؤْس فِيهَا منْ شراسته نُعْمى

رأى شبحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَـه فلمـا رأى ضَيْفاً تشمَّر واهْتـما[5]

وقَالَ هيًّا ربَّـاه ضَيْـف ولا قِرَى !! بحـقِّك لاَ تحـرمْه تالليلــةَ اللَّحْمَا

(١) هو : إسماعيل بن عباد أبو القاسم الطالقانى ، وزير غلب عليه الأدب ، استوزره مؤيد الدولة ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه ، ولد فى الطالقان (من أعمال قزوين) (عام ٣٢٦هـ) وإليها نسبته ، توفى بالرى (طهران) عام (٣٨٥ هـ) ونقل إلى أصبهان فدفن فيها . [الأعلام للزركلى ٣١٦/١] .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . وهو المطر الدائم . ويقال : دامت السماء تديم : مطرت ديمة . [لسان العرب ـ مادة : ديم] .

(٣) القِرَى : طعام الأضياف .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسْم : الأثر .

(٥) راعه : أخافه وأفزعه .

وأفـرد فـى شِعْب عَجُـوزاً إزاءَهَا ثلاثـةَ أشْـباحٍ تَخَالهـموا بُهْـمَا
حُفاةٌ عُراةٌ مَا اغتذَوْا خُبْـزَ مَلَّـةٍ ولاَ عَرفُوا للبُرِّ مُذْ خُلقـوا طعْما[(١)]
فَقَـالَ ابنُـه لَـمَّا رآهُ بحـيْرةٍ أيَا أبْتِ اذْبحْـنى ويسِّرْ لَهُم طُعْما
ولاَ تَعتذرْ بالعُدْم علـى الذى طَرَا يظـنُّ لَنَـا مَـالاً فيُـوسِـعُنا ذمَّـا
فـروَّى قليـلاً ثُـمَّ أحجـمَ بُرْهـةً وَإنْ هُـوَ لـم يذبـح فَتَاهُ فقَـد همَّا
فبَيْنَا هُمَا عَنَّـتْ على البُـعْدِ عَـانَـةٌ قَـد انتظـمتْ من خَلْف مِسْحلها نَظْما[(٢)]
عطَاشاً تريد الماءَ فانْسَابَ نحوهَا علَـى أنَّـه مِنْـها إلـىَ دَمِـها أظْـما
فَأمهلَـها حـتَّى تَـروَّتْ عطاشُـها وأرسَـل فيـها من كِنَانته سَـهْما
فَخرَّت نَحُوصٌ ذَات جحش قَـدْ اكتنزَتْ لَحْماً وقـد طُبِّقَتْ شـحْما[(٣)]
فَيَا بشْـرَهُ إذْ جرَّهَـا نَحْـو قومه ويَا بشْـرهُم لما رأوا كَلْمها يَدْمَى[(٤)]
وباتَ أبُوهـم مـن بَشَـاشـتِه أبَاً لَضَيْفهمـوا والأم مِـنْ بِشْـرها أُمَّـا

لقد تأصلتْ خَصْلَة الكرم فى العربى ، حتى فى الأطفال الصغار ، فهو وإنْ كان فقيـراً لكن لا يحب أن يُعرف عنه الفقر ، يحب أن يظهر فى صـورة الغنى الكـريم المـعطاء ، وإنْ ناقض ذلك صـفـات أخـرى ذميمة فيه .

والشاهد أنهم جـماعة تناقـضتْ خصالهم ، وقـد عاشوا فى أمـية تامة فـلم يعالجـوا حضارة ، وهـذه حُسِبت لـهم بعد ظهـور الإسلام

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٣) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٤) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

وبعثة النبى ﷺ من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أنْ يأتوا بهذه المعانى والأساليب العالية التى تحكم العالم كله ؟ ولو كانوا أهلَ علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه قفزة حضارية .

ولو كان رسول الله ﷺ قارئاً لقالوا : قرأ لفلان وفلان ، كما حكي عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]

إذن : فذكْر العرب وشرفهم ومجدهم وكرامتهم فى القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما أعرضوا عنه ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

أى : عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(الخَرْج) : ما يخرج منك طواعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رغماً عنك ، والزيادة فى المبنى تدل على الزيادة في المعنى ، فالخراج أبلغ من الخَرْج . والمراد بقوله تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ .. ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون] إنْ كنتَ تريد خَرْجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خُذْه من ربك ، فما عندهم ليس خَرْجاً بل خراج ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ .. ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون]

فلا تأخذ الرزق إلا من يد الخير والبركة ؛ لأن الحق سبحانه لا

يمنُّ على خَلْقه برزق يرزقهم به ، فهو سبحانه قد استدعاهم إلى الحياة ؛ لذلك تكفّل سبحانه بأرزاقهم ، كما لو دعوتَ صديقاً إلى طعام فإنك تُعِدُّ له ما يكفى عشرة ، فما بالك حينما يُعِدُّ لك ربك عز وجل ؟

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾ [المؤمنون] وهذه أحدثتْ إشكالاً عند البعض ؛ لأن الحق سبحانه جعل لخَلْقه شراكة فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خير الرازقين ؛ لأنه يرزق الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنتَ ترزق غيرك مثلاً طعاماً فهو سبحانه أصل هذا الطعام ومصدره .

هو سبحانه خالق التربة ، وخالق الماء ، وخالق الهواء ، وخالق البذرة ، وما عليك إلا أنْ أعملتَ عقلك ، واستخدمتَ الطاقات التى منحك الله إياها ، فأخرجتَ هذا الطعام ، فلو أنك جِئْتَ لأهلك بحاجيات المطبخ ولوازم المعيشة طوال الشهر من دقيق وسمن وأرز وسكر .. إلخ وقامت زوجتُك بإعداد الطعام أتقول : إن الزوجة هى التى جاءت بالطعام ؟

لذلك يقول العلماء وأهل المعرفة : نَزِّهوا ألسنتكم عن قول : فلان رازق ، ودَعُوها لقول الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو خالق الرزق ، وواجد أصوله ، وما أنت إلا مُنَاول للغير .

وتلحظ أنه تعالى أضاف الخَراج إلى الربوبية التى تفيد الرعاية والعناية والتربية ، فما دام الخراجُ خراجَ ربك يا محمد ، فهو خراج كثير وعطاء لا ينفد .

